

الخواطر

بقلم الأستاذ صلاح الدين الأيوبي

وكل إدارة البيع والرمز بوزارة التجارة والصناعة

تسمى الخواطر أحيانا أحلام اليقظة لأنها تشبه الأحلام من وجوه كثيرة ، أهمها أنهما ينبعان من مكان واحد هو العقل الباطن ، ويتجهان في التعبير أسلوبا واحدا ، هو أسلوب الفطرة التي تتمثل في ثقافة الإنسان البعيد ، إن سذاجة وإن وحشية ، ثم أنهما يؤديان وظيفة واحدة هي التفرغ عن النفس ، وهذه الوظيفة هي التي نجعلها مدار البحث .

عند ما تقرأ كلمة " الخواطر " التي جاءت عنوانا لهذا الموضوع فانك تعرف شيئا . هو أني أعرض عليك معلومات عن موضوع الخواطر ، وهذه المعرفة تثير لديك عاطفة هي حب استطلاع هذه المعلومات ، وهذه العاطفة تبعث في نفسك رغبة الى قراءتها . فان أنت قرأتها فقد أشبعت رغبتك ، وشعرت بارتياح . ولكن هب أن عارضا حال دون اشباع هذه الرغبة . فأين هي تذهب وما مصيرها ؟ إنها تظل مكبوتة في العقل الباطن . وهي قوة كامنة ضعيفة كانت أو قوية .

وتقتضى ملائسات الحياة اليومية كبت طائفة من عواطفنا وكبت ما يتبعها من رغبات ، فنظل في العقل الباطن طاقة نفسية مضغوطة ، وهي دائبة الإلحاح على العقل الواعي في التماس غفلة منه تمكنها من الظهور ، والعقل الواعي دأب الإلحاح على هذه الطاقة النفسية يريد أن تظل مكبوتة ما دامت مقتضيات الحياة التي أوجبت كبتها قائمة .

هو تبادل القوة والمقاومة بين الطاقة النفسية المضغوطة الضاغطة من جهة ، والعقل الكابت المستهدف من جهة أخرى . لذلك كان لا بد لهذه الطاقة من صمامات تفرغ شأنها في ذلك شأن الرجل المتأرجح ، وتعتبر الخواطر والأحلام صمامات الأمن والتفريغ . وما دام الوعي ساهرا فالعراك دائر ، وهو صراع بين العقل الباطن والعقل الواعي يتخذ من نفوسنا ميدانا له كل يوم . ويمكن الآن أن نراجع وجهة نظرنا في الأخطاء والزلزلات التي كانت تبدو أنها هفوات بريئة . إذ يتضح أنها تعبير صريح عن نيات دفينية مكبوتة في العقل الباطن ، وأنها استجابة عواطف مكبوتة ورغبات مضغوطة ، قد غافلت العقل الواعي فبدت ، فحملت على أنها هفوة من العقل الواعي حين أنه برى منها براءة الذنب من دم ابن يعقوب . هي لغة صريحة يبررها العقل الباطن عن مكنوناته ، فحين ارتقى درجا ، وتعثرت قدمي فلا يكون هذا التعثر من بنات الصدفة ، وإنما هو وليد رغبة جامحة مكبوتة في العقل

الباطن تدفعني إلى الاسراع في الصعود لسباع خبر سار مثلاً ، فيدس هذا العقل درجة زائدة بين قدمي لم يعمل عقل الواعي حساباً لها فاتعثر . وهذا شأن زلة القلم أو زلة اللسان حين يجعلني التسرع أكتب أو حين يجعلني أقرأ كلمتي " تسرع مكبوت " هكذا " تسربوت " ، مسقطاً بعض الحروف منهما كافي أثب على رؤوس الكلمات وثباً .

وتفسر لنا هذه الحقيقة أشياء كثيرة : فهي تجعلنا أقدر على قراءة الوجوه ، والفغلغل في أعماق الناس والوقوف على معان وأسرار غائرة في الحفوة والنظرة والإشارة والنبوة ، بل أنها تفسر لنا أحياناً بعض الحوادث التي كانت تبدو غامضة ، وكان يتم بحريتها القضاء والقدر ، مثل سقوط خادم من نافذة أثناء عنايته بتنظيفها ، أو وقوع أحد المارة في طريق سيارة ، أو فقدان الذاكرة في وقت امتحان ، أو تلامم وتضارب أمام القضاء ، والغالب أن العقل الباطن كان مشحوناً بالفكرة التي أدت إلى النتيجة فأوحى بذلك الشخص لنفسه بفكرة السقوط أو بفكرة الانتحار أو بالبلادة أو التلعثم .

ونتهى من ذلك إلى نتيجة هامة هي ضرورة العناية بالعواطف والرغبات التي نكتبها : فحيث تكون مفيدة وخيرة فالشخص خير وطيب ، وحيث تكون خبيثة وشريرة ، فهو كذلك حقاً .

وإذا تغلب العقل الواعي على العقل الباطن ، وتم له حجب الطاقة فإنما يطفو وإن غارت ما يدل عليها ، كأن يعيث الإنسان بقدمه أو بشيء بين أصابعه ويعتبر هذا العبث صماماً من الصمامات التي وإن خففت من حدة الضغط لا تشبع نهم الرغبة .

وإذا تغلبت قوة العقل الباطن على قوة كبت العقل الواعي ، كثرت الخواطر لا مرتدية قناع الاخطاء والزلات أو العبث بالأشياء والعصية في الأقوال أو الحركات ، وإنما صريحة سافرة ، خواطر سائبة هائمة جامحة ملحة تكاد تكون متواصلة حتى ليكاد يمتنع على العقل الواعي أن يباشر نشاطه ، فإذا بالإنسان مهموماً ويصعب عليه العمل لأنه يتطلب نشاط العقل الواعي وهو مقهور فيجدل على أن يبذل جهوداً ليست في مستوى طاقته إزاء تيار الخواطر الجارف فتبدو جهوده جبارة رغم أنها في الواقع عادية . وما ذلك إلا لأن العقل الباطن ليس على وفاق مع العقل الواعي . فإذا هيج الإنسان إلى النوم أخذ العقل الباطن يتفتق عن خيالاته المتندقة فتسبب الارق وتمنع النوم . فإذا اتفق أن مس ملاك النوم ألقفون المسهدة فإنما لكي يتحرر العقل الباطن من كل أثر من آثار رقابة العقل الواعي فتندفع الأحلام في عنف مروع يطير بالنوم ليعود هذا العقل الباطن فيستبد بالوعي لحساب الخواطر .

فإذا استفعلت قوة الطاقة نراه يكلم نفسه بصوت مسموع وأحياناً يتكلم أمام الناس حيث يجب السكوت لانه لا يعي بما حوله ولا يرى إلا خواطره وكأنها حقائق لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وهذا هو الجنون الذي يصور لمن صدمه اشهار افلامه أنه مومر ولى . ويصور لمن صدمه الحاق الاهانة بكرامته أنه ملك ومتوج . الى ما يقاس على ذلك . ويلاحظ على هذه الحالة ملاحظتان :

الأولى — ان الجنوح الآلى الذى يبدو فى تعويض النقص المحسوس وهو الافلاس أو الالهانة يدل على أن الترقى طبيعة فى الانسان وسجية . ويستتبع من ذلك أنه طالما كان الإنسان متفلا الى أرقى كان سعيدا فى حياته وهذا هو الأساس الذى يبنى عليه فن الحياة ويجب على كل فرد أن يعنى بنظام يكفل هذا التنقل باضطراب ويحاسب نفسه يوميا عليه .

الثانية — ان العقل الباطن فى تعويضه النقص الملموس يستعمل تلك الأساليب الفطرية فيدوله أن الالهانة لا تمنحى إلا اذا أسبغ الصفة الملكية على الذات المهينة .

وقد يهتدى رغم ذلك إلى حلول موفقة للشاكل القائمة ولذلك يحسن تتبع نفثات العقل الباطن ودراستها . ويعزو الروائى ولیم آرشر فضل وضع خطة مسرحيته الناجحة (الآلة الخضراء) الى ما كان يسجله يوميا من خواطره وأحلامه عملا بنصيحة فرويد فى كتابه تفسير الأحلام .

ويحسن أن يراقب الانسان نفسه فلا يسمح بنشوب هذه المغالبة فى نفسه ، ويقضى على كل ما يمهدها قبل أعمالها واستفحالها . فيجب عمله الى نفسه لأن الرجل المترن هو الذى يخال على المسألة ، فيجعلها أساس العلاقة بين عقليه . فيقبل على عمله كما يقبل الطفل على لعبته . فاذا تمذرك ذلك فليعرف ماذا تريد نفسه ، أى عقله الباطن فيسلم له ببعض نشاطه برهة معينة من كل يوم . ذلك ما لم يكن الأمر مما لا بد من حدوثه فيحسن سرعة القطع فى الموضوع ولو بالخسارة لأنها بالغة ما بلغت ، دون التلف النفسى الذى يتخلف عن النزاع بين العقليين .

يقول جيريمى تايلور عند ما نزع ملكية أمواله وأصبح هو وعائلته بغير مأوى بين عشية وضحاها : ” الحمد لله على الذى تبقى لى بعد ضياع ثروتى . فقد تركوا لى الشمس والقمر وزوجتى المحبة وأصدقائى المخلصين يشعلونى بعطفهم وعزائهم . لم يتناولوا شعورى الخير ولا روحى الطروبة ولم يحرمونى العناية الالهية ولا ما وعدنى الله به ولا أمل فى رحمته وهانذا أنام وآكل وأقرأ وأمكر . ومن يملك كل هذه النعم والمسررات ولا يفسر صدره على وورثتها وحبه إياها لأنه يفضل أن يقعد على ما يعتبر نسبيا حفنة من الأحران لهُو حقا فقير .

وليس الفرد وحده هو ضحية هذا النزاع العقلى وإنما يشترك معه المجتمع فى الضرر بنصيب . وليس مرجع الضرر الحالات التى تستوجب الجرز فى مستشفيات الأمراض العقلية فقط وإنما مرجعه أيضا الحالات الخفيفة التى تستر عن الملاحظة لبساطتها . وهى كثيرة إذا قيست بعدد الحالات البارزة . ولذلك فإن الضرر الذى يلحق الانتاج القومى من انتشارها ومن عدم ملاحظتها خطير .

وفضلا عن الضرر الذى يمثل فى هبوط مستوى الانتاج فى مختلف النواحي فان بعض الظواهر الاجتماعية مثل ازدياد حالات الطلاق أو حالات الطفولة المشردة يرجع الى الانحرافات الناشئة من هذا النزاع كما يرجع اليه بعض حالات الاجرام. وكثيرا ما كان يمكن تداولها بالعلاج لو أنها كانت قد اكتشفت مبكرا . فيوفر علاجها العناء والاضرار ونفقات التحقيقات ودور الاصلاح . ولذلك فان الوقاية العقلية لا تقل أهمية عن الوقاية الجسمية . وهذا ما وصلت اليه اللجنة القومية للصحة العقلية التى أسست فى نيويورك سنة ١٩٠٩ وما زالت تصدر المجلات وتنشئ العيادات النفسية حتى امتدت الحركة الى أوروبا كما ازداد انتشارها فى أمريكا وأصبح بالولايات المتحدة فى الوقت الحاضر أكثر من مئة عيادة نفسية لتوجيه ووقاية الأطفال والشبان .

ومن الحلول الموفقة فى ازالة هذا النزاع اجابة رغبات العقل الباطن بشكل تقفه ملائمت الحياة وذلك بادخال بعض تحريف على الرغبات المكبوتة . وهذا الحل هو ما يسمى التسامى بالعاطفة أو السمو بها . فالعاطفة الجنسية مثلا تنضم من حب الجمال وحب الثبات والأمانة والتضحية والتجمل والترقى ويمكن أن تحرر العاطفة الجنسية من قيود الكبت بصرفها الى فن من الفنون الجميلة كاقامة بناء جميل فانه عمل يحتاج الى حب الجمال وحب الثبات والأمانة والتضحية والتجمل والترقى وهى نفس العناصر الداخلة فى تلك العاطفة . وهكذا تصبح العواطف المكبوتة التى تهدد بالجنون سببا للعبرة والترقى .

وعلى ضوء ما تقدم ، يمكن تأويل الولع بتربية الكلاب عند بعض الناس بأنه اشباع لأبوة أو أمومة جائعة ، ولكنه ليس تساميا كما لو اتخذ شكل العناية بالأيتام .

ويمكن كذلك تفسير ارتباط الأدب بالموضوعات الغرامية فهو تسام بالعاطفة الجنسية. ويتضح أن من المراهقة ، هو أنسب أوان للتسامى بالكفايات ، طالما أن تأخر الزواج مع حسن التوجيه ، يأتى بأجل النتائج .

وقد أمكن استغلال تداعى الخواطر فى كشف الجرائم بطريقة التحليل النفسى .

ذلك بعض مانعرفه من دراسة الخواطر، وهى ذات مغزى وذات خطر، وفى ذلك يقول الأستاذ فلوجل فى مؤلفه (علم النفس فى مائة عام من ١٨٣٣ — ١٩٣٣) إن المعلومات التى تتيح لنا النهوض بالكفايات الانسانية وحسن استعمالها على أساس علمى رصين لانهتدى اليها إلا بالبحث فى العقل الباطن ما

صلاح الدين الأيوبي

لباس فى القنون وفى الفلسفة والاجتماع